



هندسة السلوك

حسن القحطاني

ليس أخطر على صفاء الإنسان من أن يلين قلبه لما كان يراه قبيحاً، أو أن يعتاد صوت الباطل حتى يفقد حساسيته تجاهه. فالمحاكمة ليست أمراً عابراً، بل أثراها بطيء وعميق، كالماء حين يتسلّب في الصخر، لا يُحدث صوتاً، لكنه يُحدث تغييراً.

إلا أن التأثير ليس حتمياً دائماً؛ فكما تبهت القناعات بالتفكير، قد تقوى بالمقاومة، وتثبت بالتأمل. فالعبرة ليست فقط بما نجاوره، بل أيضاً بكيف نرى ما نجاور، وبمدىوعي القلب حين يفتح أو يغلق أبوابه.

إن للصحبة أثراً يتجاوز أثر التعليم، وللمجالسة وقعها يتعدى قوة الحجة، ذلك صحيح، لكن التأثير لا يسير في اتجاه واحد؛ فكم من شخص ثبت قلبه في بيئه متقلبة، وكم من نفس أضاءت من حولها رغم عتمة من جاورتهم. العقل قد يضعف تحت تراكم الصور، نعم، لكنه كذلك قد يستيقظ في لحظة صدق، أو يسترجع وعيه من خلال حوار عابر، أو موقف بسيط.

فليست كل منعاشر الباطل استلطافه، ولن يلي كل منجاور الفساد فقد منعاته. إنما الخطر حين يغيب الوعي، لا حين يشتت الباء. والإنسان - كما يرى أهل بصيرة - ليس كائناً مستقلّاً يصوغ ذاته في عزلة، بل هو حصيلة خمس مؤثرات تحيط به: صديقٌ يوّجه خطاه، وكتابٌ يغذي فكره، وصوتٌ يتكرر في أذنه، ومحظى يطالعه يوماً بعد يوم، وقدوةٌ يتأثر بها دون وعي.

هذه الخمسة تصقل ذوقه، وتعيد تشكيل سلوكه، وتغير نظرته إلى العالم كما تنتهي الريح ملامح الصخور مع الزمن. ومع ذلك، يظل للإنسان دور فاعل في اختيار ما يدخل عليه من هذه المؤثرات، وفيه كيف يتفاعل معها. فالتأثير لا يكون مدّراً إلا حين يتسلل بلا وعي، ويترك بلا مراجعة.

ولهذا، لا يتبدل رأي الإنسان دائمًا نتيجة بحث أو حجّة عقلية، بل كثيرةً ما يتغير بفعل ما يرى ويسمع ويختالط، خاصة إذا تكرر وتزّين. فاللهوى إذا تكررت صورته، ليس ثوب المألوف، والباطل إذا قدّم مغلقاً بالسخرية والضحك، اتخذ هيئة رأي محترم.

لكن في المقابل، قد يكون التكرار مدخلاً لترسيخ الحق أيضاً، إذا كان القلب واعياً، والعقل متيقّطاً. فالمعادلات النفسية لا تسير على وطيرة واحدة، ولا تستجيب لكل مؤثر بنفس الشكل. الثبات الحقيقي لا يقوم على حسن النية فقط، بل على حسن البيئة أيضاً.

فالمرء قد يحفظ الحق في ذهنه، لكنه يضعف أمام التكرار، ويختسر في معركة الاعتياد إذا تراخي قلبه. غير أن البيئة ليست قدراً محتواً، بل خياراً نسبياً.

فمن الناس من يقوى رغم ضعف محطيه، ومنهم من ينهار رغم أن كل شيء حوله يعينه. الفارق هو: كم مرة راجع نفسه؟ وكم مرة تفقد حقه؟ إن المحيط يعيد تشكيلنا بصمت، ومن الحكمة أن نعيد تشكيله نحن... قبل أن يسبقنا.

فالحذر كل الحذر من باب صغير يُفتح؛ فالبابايات الكبرى تبدأ دوماً بشق لا يُرى. لكن الخطر ليس في أن يُفتح الباب، بل في أن نغفل عن متابعته. والنجاة ليست في الانعزال التام، بل في وعي الانتقاء: فمن تقرأ، ومن تتابع، ومن تُبقي حيّاً في قلبك. وهذه المؤثرات الخمسة إما أن ترتفع، أو تستنزفك، أو تُعيد تشكيلك على هيئة تبها... أو لا تعرف كيف وصلت إليها. وفي النهاية، الإنسان ليس ابنَ ما يقوله، ولا ما يدعّيه... بل هو ابنُ ما يُخالطه، وما يؤونسه، وما يمر به كل يوم دون أن ينتبه لتأثيره.

فجوهنا لا يُصاغ بالكلمات، بل بما نجاور ونُكّر ونسمع له أن يسكن فينا.

حسن القحطاني